المسؤولية البيئية وأبعادها ، دراسة تأصيلية في الشريعة الإسلامية

أ. صابر راشدي*

مقدمة :

تشكل بيئة الأرض وحدة متماسكة ، تضم عناصر متعدّدة ومتنوعة ، أحد عناصرها هو الإنسان ، الذي هو سيد أحياء بيئة الأرض ، خلقه الله في أحسن تقويم ، وأودع فيه قدرات عقلية وجسدية ، وقابلية التكيُّف المستمر في سبيل تحقيق سعادته في الدنيا ونجاته في الآخرة ، وبذلك استحق أن يكون خليفة الله في الأرض ، فأوْكَل إليه مهمّة تعمير بيئتها ، وبالمقابل جعله مسؤولاً من خلال تلك القدرات .

وإذا ما أقبل الإنسان على البيئة ليحقق فيها الحياة ، وهو يحمل تصوّراً عنها ـ من خلال ما عرفه ـ يكون فيها منسجما معها ، وتكون هي مسخّرة له في سبيل إنجاز مهمة التعمير المكلف بها في وجوده على الأرض ، فإن هذا التصوّر من شأنه أن يجعل تصرّفه في البيئة تصرّف قوامة عليها ، وذلك على معنى أن يكون راعيا لها ، مشرفا عليها ، فيعمل كلّ ما بوسعه على أن يحافظ على مواردها بالصيانة والتنمية ، ليكون خيرها وبهجتها مستمرا وموصولا ، وفي المقابل يتجنب إحداث أيَّ خلل في عناصرها ، ويكون استهلاكه منها بحدود طاقتها ، وما قدّر لها من التسخير ، فهو راع لها مسؤول عنها .

وبهذا يكون الإنسان قد وضع له مسار التعامل مع البيئة ومع عناصرها ، حتى يستفيد منها ما أراد ، ويتجنّب في الوقت نفسه أي ضرر يظهر ، والذي يشغل الباحث في هذا البحث ، ويقصد إجلاء الأمر فيه بما يشفي الغليل ، ويحسن السكوت عليه ، هو : إذا كان الإنسان في المسائل المدنية قام بعمل أخطأ فيه ـ إيجابا أو سلبا ـ وأخلّ بحقّ غيره ترتب على ذلك مسؤولية مدنية تقصيرية كانت أم عقدية ، وأما إذا تعدّى الأمر إلى ارتكاب فعل مجرّم يكون بذلك وفقا للقانون الجنائي مسؤولا جنائيا ، أي تترتب المسؤولية الجنائية عليه ، فإذا ما كان الإنسان قام بأعمال ـ إيجابا وسلبا ـ خالف القانون الذي وضعه خالقه فأحدث ضررا في البيئة ، أو في عناصرها ، وأخلّ نظامَها ، أيمكن القول أن ذلك كافيا لأن تترتّب عليه مسؤولية تجاه البيئة؟ وما هي النصوص الشرعية الدالة على ذلك ، والتي تحكمها؟ وعلى أي أساس بنيت هذه المسؤولية في تقدير علماء الشرع؟

لكل وجهة نظر أبعاد تجعله مؤسسا ومرتكزا تعود إليه الجوانب العملية في حالة الخلط أو عدم التوضيح ، ومن جانب آخر حتى لا يكون الكلام عن المسؤولية

* قسم الحقوق والعلوم السياسية ، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة .

البيئية كلاما نظريا لا يمكن تنزيله للواقع ، وهو ما يتنافى مع المنهج الإسلامي في جميع تشريعاته ، فلا بد من ترجمة هذه المسؤولية البيئية ترجمةً ترتكز على آلية فعّالة للتنفيذ، كما نجده في ترجمة الفقه الإسلامي للقواعد والأحكام إلى ممارسات عملية ، ففيم تكمن أبعاد المسؤولية البيئية في النظرة الشرعية؟

وللإجابة على هذه التساؤلات نحاول في هذه الصفحات التعريف بالمسؤولية وشرح أبعادها ، وفق الخطّة المنهجية التالية :

المبحث الأول : التعريف بالمسؤولية البيئية وأساسها ، فالمطلب الأول منه للتعريف بالمسؤولية البيئية من حيث ذكر تعريفها الاصطلاحي وأنواعها ، وكل في فرع ، أمّا المطلب الثاني خصّ لأساس المسؤولية البيئية ، والمتمثل في التكليف بالخلافة فرع ، وقانون التعاون بين عناصر البيئة فرع ثاني .

المبحث الثاني : أبعاد المسؤولية البيئية ، فالمطلب الأول منه تكلمنا عن إدراك المعنى الحقيقي للبيئة ، من خلال معرفة العلاقة بين الإنسان والبيئة ، الفرع الأول لعلاقة الوحدة ، والثاني لعلاقة التميّز؛ والمطلب الثاني تعرّضنا لأخلاقيات التعامل مع البيئة .

كما أنّني أعتبر هذه المحاولة كمقدّمة لبحوث تجود بها قرائح المهتمين بالبيئة ، والكلام عن المسؤولية كلام طويل وعريض ، يحتاج إلى إعمال فكر ونظر ، كما أنني لم أتطرّق إلى الجانب القانوني على الإطلاق ، إذ حاولت معالجة هذه المسؤولية في الجانب الشرعي فقط ، من حيث أساسها والمقصود منها ، وذكر أنواعها وأبعادها ، سعيا في التأصيل الشرعي لها ، وإظهار المستند والأساس الذي تبني عليه ، لما يترتب عليه من ممارسات وتعاملات مع البيئة على وجه العموم ، أو مع أحد عناصرها على وجه الخصوص .

المبحث الأول : التعريف بالمسؤولية البيئية وأساسها .

نقسم هذا المبحث إلى نقطتين أراهما أساسيتين ، وكل واحدة منهما في مطلب ، أما الأولى فنخصص الكلام فيها عن المسؤولية البيئية وأنواعها ، الملقاة على عاتق الإنسان ، وأما الثانية فعن أساس المسؤولية البيئية .

المطلب الأول : التعريف بالمسؤولية البيئية .

الفرع الأول : تعريف المسؤولية البيئية . أولا : تعريف المسؤولية .

لغة : المسؤولية من المسائلة والسؤال ، وهي تعنى بمن تولّى أمر شيء معيّن ، فيسأل عنه ، من حيث قيامه به على الوجه الأكمل ، أو عدم قيامه . فهي من سأل يسأل سؤالا ، وقال تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾[الصافات : 24] ، أي مؤاخذون .

والمسؤولية على الوجه العام هي المؤاخذة على عمل ما قد خالف صاحبه القوانين التي تضبطه (1).

شرعا : المسؤولية هي أن يقوم الشخص بارتكاب أمر يترتب عليه مؤاخذته ،

(1) عدنان على رضا النحوي : المسؤولية الفردية في الإسلام دار النحوي : الرياض ، ط : 01 ، 1419 ـ 1999 ، ص44 .

وهي تبعة مخالفته لما يجب عليه فيه طاعته [1].

من خلال هذا يتبيّن أن المسؤولية هي مؤاخذة الفرد على ما قام به إن كان قد خالف القاعدة التي سطرت لها حدود الممارسة لحقوقه ، وتكون المسؤولية في الشريعة الإسلامية بمخالفة المرء لأوامر الله تعالى ، إذ ترتبط ارتباطا وثيقا بالمساءلة أمام الله يوم القيامة ، كما جاء في سورة الصّافات : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[الصافات : 24] أي يحبسون في الموقف حتى يسألوا عن معاصيهم وآثامهم .

ثانيا : تعريف المسؤولية البيئية :

لم أجد تعريفا للمسؤولية البيئية في حدود ما اطلعت عليه ، ويمكنني القول إنّ المسؤولية البيئية هي نوع من أنواع المسؤولية العامة التي ألقاها الشارع على عاتق الإنسان ، وتتمثل في مؤاخذة الإنسان على ما كلّف به تجاه البيئة أو أحد عناصرها إن لم يقم به ، باعتباره حافظا مؤتمنا على الصلح لما جعله عليه قائما .

فالله سبحانه وتعالى وجّه الخطاب بالإصلاح في الأرض وتَرْكِ الفساد فيها ، وسمح له باستخدام ملكاته والبيئة التي سخّرها له في عمارة الأرض وإقامة حكم الله فيها ، وهو ما أطلق عليه العلماء بالاستخلاف .

الفرع الثاني : أنواع المسؤولية البيئية

ومسؤولية المحافظة على البيئة ، لا تنحصر على فرد دون آخر أو تتعيّن على فئة دون أخرى ، والمسؤولية هنا تتعدّد ، منها ما تكون واقعة على الفرد ، ومنها ما هي واقعة على الجماعة ، والتي تنقسم إلى قسمين منها الفردية ومنها الجماعية ، والجماعة منها مجموعة أفراد لا تربطهم علاقة تنظيمية ، ومنها الدولة كتنظيم محكم الجوانب ، وهذا التقسيم مراعاة للعلاقة المباشرة التي تربط كل واحد منا مع البيئة وإمكانية التعامل معها من دون أية واسطة ، مما يتيح التصرّف فيها .

أولا : المسؤولية الفردية .

هي تكليف الفرد المسلم بالمحافظة على البيئة وعناصرها ، وذلك بصيانة مواردها وتنميتها ، والانتفاع منها على قدر طاقتها ، والواجب على كل فرد مسلم أن يحافظ على صحة بيئته ، ويدفع كل ما يضر بها ، ولا يقدم على ما من شأنه أن يفسدها ويضر بالصحة العامة أو الخاصة ، ويهلك الأنفس ، ومما يؤكد ذلك الخطاب الشرعي الموجّه إلى كل فرد باعتباره مخاطبا بها بالالتزام مع البيئة وفق ما تقتضيه السنن الكونية والواجبات الشرعية ، سواء كان الأمر بالالتزام الايجابي بالتعاون على الخير والمعروف ، أو بالالتزام الامتناعي عن كل فساد وإضرار .

ومستند ذلك نصوص كثيرة سواء في القرآن أم في السّنّة النبويّة ، منها : قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر : 08]؛ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا

(1) علي الخفيف : الضمان في الفقه الإسلامي (دار الفكر العربي : القاهرة ، د ط ، 1997) ، ص 03 .

﴿يَعْمَلُونَ﴾[الحجر : 92 ـ 93]؛ وفيما رواه البخاري ومسلم ، عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، أنه قال : « **ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع ، وهو مسئول عن رعيته؛ والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهي مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته** »[1] . ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « **ما مِنْ راعٍ إلا يُسألُ يوم القيامة أقام أمر الله أم أضاعه** »[2] ، وفي حديث أنس بن مالك رضي لله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « **إنّ الله سائلٌ كلَّ راعٍ عمّا استَرْعاه حفظ ذلك أم ضيّعه** » [3].

والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه ، وما هو تحت نظره ، فهو مطالب بالعدل فيه ، والقيام بصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته [4]. وليس مطلوبا لذاته وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك فينبغي أن لا يتصرّف إلا بما أذن الشارع فيه ، ودخل هذا العموم المنفرد الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه حتى يعمل المأمورات ويتجنّب المنهيات فعلا ونطقا واعتقادا فجوارحه وقِواه وحواسه رعيته [5]. هذا دلالة على المسؤولية الفردية والتي تبدأ من الفرد نفسَه ، من جوارحه وحواسه فهو مسؤول عنها ، بتحمّل كل ما يصدر عنها من قول أو فعل .

وعموم قوله تعالى : ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾ [النساء : 29] بأن يحمل الإنسان نفسه على الضرر المؤدي إلى التلف ، وقد احتج عمرو بن العاص بهذه الآية حين امتنع عن الاغتسال بالماء البارد حين أجنَب في غزوة ذات السلاسل خوفا على نفسه منه ، فقرر النبي ﷺ احتجاجه وضحك عنده ولم يقل شيئا [6].

فإتلاف البيئة إتلاف للنفس من باب أولى ، وما يشغل العالم اليوم إلا تهديد الحياة الإنسانية بالزوال في ظل المشاكل البيئية الراهنة ، التي تهدد الوجود الإنساني ،

---

(1) متفق عليه ، أخرجه البخاري : كتاب الأحكام ، باب : قوله تعالى : ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم**﴾ ، تحت رقم : 7138؛ وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث بالرفق على الرعية والنهي عن إدخال المشقة عليه ، تحت رقم : 1829 ، واللفظ لمسلم .

(2) أخرجه ابن عدي والطبراني في الأوسط ، قال ابن حجر سنده حسن ، يراجع فتح الباري : ج : 13 ، ص140 .

(3) أخرجه ابن عدي بسند صحيح ، يراجع فتح الباري : ج : 13 ، ص140 .

(4) النووي : شرح صحيح مسلم ، ج : 6 ، ص455 .

(5) ابن حجر العسقلاني : المرجع السابق ، ج : 13 ، ص140 .

(6) روى أبو داود عن عمرو بن العاص قال : احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السَّلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح ، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « **يا عمرو ، صلّيت بأصحابك وأنت جنبٌ؟** » فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال ، وقلت : إني سمعت الله يقول : ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيما**﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً . أخرجه أبو داود في السنن : كتاب الطهارة : باب إذا خاف الجنب البرد ، رقم : 106؛ يراجع : أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي : معالم السُنن شرح سنن أبي داود ، خرّجه وراجعه : محمد محمد تامر(مطبعة المدني : مصر ، ط : 01 ، 1428 ـ 2007) ج : 01 ، ص 113 .

فحفظ النفس يتضمن حفظ البيئة ، وما يعكّر على البيئة صفوَها هو نوعٌ من الانتحار البطيء ، الذي يقود الإنسان إلى موارد الهلاك[1] ؛ فمسؤولية الإنسان في حفظ حياته وصحته تتضمن مسؤولية حفظ البيئة وصحتها ، وعدم إلقائها إلى التهلكة؛ وحفظ البيئة هو من حفظ النّفس ، والمال والعقل والنسل ، وهو ما يصطلح عليه بحفظ البيئة حفظ للكليات الخمس .

ثانيا : المسؤولية الجماعية .

يقول الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور : 55] .

فالأمّة الإسلامية نائبة عن الله في مباشرة مهمّتها ، وهي مكلّفةٌ بها ، ومن ثمّ نشأ أساس مسؤوليّتها بوصفها الجماعي ، وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أبلغ تعبير للمسؤولية الجماعية ، إذا روى عن النبيّ ﷺ أنه قال : « **مَثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوْمٍ استَهَمُوا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلَها ، فكان الذين في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مرُّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤْذِ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا** »[2] ومعنى ذلك أن الجميع مسؤول، وأن المسؤولية لا تقف عند حد التزام الشخص بل التزام غيره أيضاً، فلا يكفي ألا ألوث الطريق، وإنما أن أعمل على ألا يلوثه غيري من الناس.

ومقتضى المسؤولية الجماعية أن يقوم المسلمون بواجباتهم في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فيما يخص البيئة وقضاياها ، وأن يتّخذوا التدابير الكفيلة بحماية البيئة ، وحل مشكلاتها ، إن على الصعيد الإقليمي ، أو على الصعيد الدولي؛ كما أن من مقتضى هذه المسؤولية عموم العقاب لجميع الأفراد ، كما ورد في قوله ﷺ : عن أبي بكر الصِّدِّيق أَنَّهُ قال : « **يا أيُّها النَّاس إنَّكم تقرؤون هذهِ الآيـة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾**[المائدة : 105]؛ وإنِّي سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول : « **إنَّ النَّاس إذا رأوا الظَّالمَ فلم يأخذوا على يديهِ أوشَكَ أنْ يَعمهم الله بعقاب منه** »[3] . [4]

كما أن المسؤولية الجماعية للبيئية من باب حفظ حياة الأمة جمعاء ، فإن بعض الأخطار البيئية أشبه ما تكون بعمليات شروع في قتل جماعي ، كما نذكر جميعاً كوارث

(1) قطب الريسوني : المحافظة على البيئة من منظور إنساني(دار ابن حزم : بيروت ، ط : 01 ، 1429 ـ 2008) ص 65 .

(2) أخرجه البخاري : كتاب الشركة ، باب هل يقرع في القسمة ؟والاستهام فيه ، تحت رقم2493 ، 2686 .

(3) أخرجه الترمذي في كتاب : الفتن ، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ، تحت رقم : 2175؛ وأبو داود : كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي .

(4) صفاء موزة : حماية البيئة الطبيعية في الشريعة الإسلامية دراسة فقهية مقارنة (دار النوادر : سورية ، لبنان ، الكويت ، ط : 01 ، 1431 ـ 2010) ، ص109 .

بعض المصانع الكيماوية وبعض المفاعلات النووية ، حيث أدى تسرب الغازات الكيماوية السامة وتسرب الإشعاعات النووية إلى كوارث قتل جماعي؛ وهو ما يعرف عن المصانع النووية ، والتي ذرة منه تسبب في قتل مدينة بأكملها .

كما أنها من باب التعاون على البر والتقوى ، يقول الله تعالى : ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[المائدة : 02] إن المحافظة على البيئة وعناصرها من أعمال البر التي يجب على المسلمين أن يتعاونوا عليها ويسعوا جميعا على تحقيقها ، لأن في ذلك أمان المجتمع وسلامته وصحته ووقايته من الأمراض والأدواء الفتاكة والأوبئة المنتشرة .

ولهذا فالواجب على الجماعة رجالاً ونساء ، شبابا وشيوخا أن يتعاونوا على حفظ البيئة وصحتها بتجنب الأشياء المضرة وتقديم الأشياء المفيدة لها ، والمساهمة في إقامة المؤسسات التي تهتم بحمايتها ، والقيام عليها ، ومحاربة أي فساد فيها أو إفساد لها [1].

فالإنسانية مخاطبة بهذا الخطاب باعتبارها المجموع الإنساني ، كما لا يمكن أن تحقق دعوة الإصلاح في البيئة لو كان البعض فقط هو القائم على ذلك والآخرون لا يبالون ، فلا تقوم للبيئة قائمة ، وتتشتت بذلك دعوة المسؤولية ، وقد قال الشاعر قديما :

متى يبلغ البناء تمامه إذا كنت تبني وغيرك يهدم

ثالثا : صور المسؤولية الجماعية .

إذا بحثنا في التراث الإسلامي نعثر على العديد من التطبيقات العملية في هذا الشأن ، ومن ذلك مثلاً مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو من أهم المبادئ التي يقوم عليها الإسلام ، فالكل في المجتمع مأمور بالأمر بالمعروف ، والكل في المجتمع مأمور بالنهي عن المنكر ، وإن تنوعت الأساليب لتحقيق ذلك ، حسب موقع كل شخص وفهمه وعلمه ، ومما هو في غير حاجة إلى بيان أن المحافظة على البيئة بعناصرها يقع في صلب المعروف ، وأن العدوان عليها يقع في بؤرة المنكر .

تتطلب عملية حماية البيئة مجهودات وطنية ومجهودات دولية ، فالمجهودات الوطنية أو المحلية هي جزء لا يتجزأ من المجهودات الدولية لحماية البيئة . فإن إيكال هذه المسؤولية إلى الدولة كاملةً ـ عليها وحدها ـ هو منهج غير فعَّال[2]، فالأمم المتحدة والدول ومؤسسات المجتمع المدني مطالبة اليوم بوضع السياسات التي تسْهِم في الحدّ من

(1) عبد الله قاسم الشولي : التوجيه التشريعي الإسلامي في نظافة البيئة وصحتها ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية ، العدد : 44 ، ذو القعدة1429 ـ 2009 ، ص416 .

(2) يراجع كمال رزيق : دور الدولة في حماية البيئة مجلة الباحث : العدد : 05 ، سنة2007 ، ص95 ـ 105؛ عبد الله قاسم الشولي : المرجع السابق ، ص217 وما بعدها . تقرير التنمية 1992 : ص86 وما بعدها ؛ كينيث ميراندا : السياسة العامة والبيئة ، مجلة التمويل والتنمية ، يونيه1991 نقلاً عن : شوقي أحمد دنيا : الإسلام وحماية البيئة ، بحث مقدم إلى المجمع الفقه الإسلامي ، في الدورة التاسعة عشرة المنعقد بإمارة الشارقة دولة الإمارات العربية المتحدة . في الفترة1 ـ 5 جمادى الأولى 1430هـ ، الموافق ل : 26– 30 أبريل 2009 ، www . fiqhacademy . org . sa

التلوث بمختلف أنواعه ، فللأفراد وللمنظمات الحكومية وغير الحكومية والهيئات العامة والجمعيات دور بارز في هذا الأمر، ومهما قوي دور الدولة والمؤسسات الحكومية فإنه لن يغني عن دور الجمعيات والمنظمات.

والتطبيقات العصرية لهذه المسؤولية الجماعية ، والتنفيذ الفعّال لهذا المبدأ ، يمكن أن يظهر بصور متعدّدة ومختلفة ، إذ يتم من خلال النقابات والجمعيات والمساجد والنوادي والأحزاب واتحادات الطلاب ، وغير ذلك . وبهذا تتبلور مسألة المشاركة الشعبية والجماهيرية في الحفاظ على البيئة بلورة عملية تنهض بحماية البيئة ، حيث إن آثار المشكلات البيئية تعم الجميع على الرغم من كون الفاعِل قد يكون فردا ، ومن ثم فمن حق وواجب الجميع أن يشارك مشاركةً فعالةً وليست صورية في منع هذه المشكلات ، هذا حق الجماعة على الحكومة ، وهو في الوقت ذاته واجباً أمامها وأمام الأفراد فرداً فرداً ، وقبل هذا وذاك أمام الله سبحانه وتعالى .

المطلب الثاني : أساس المسؤولية .

يتمثل اساس المسؤولية في نقطتين هما : التكليف بالخلافة ، وقانون التعاون ، نخصص لكل نقطة فرع .

الفرع الأول : التكليف بالخلافة أساس المسؤولية .

أولا : المقصود بالخلافة .

ومعنى الخلافة ، أو المهمة الوجودية للإنسان التي يطلقها عليها البعض ، هو تنفيذ مراد الله تعالى في الأرض وإجراء أحكامه فيها [1]، فله كل السلطة التي تمكّنه من تطبيق هذه المهمة ، وهو خاضع للثواب والعقاب ، فيثاب على أدائه لها ، ويعاقب على تضييعه إيّاها ، ويتضح ذلك في قول قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة : 30] . والخلافة تقتضي مساءلة المستخلِف للمستخلَف عمّا استخلفه فيه ، فيشكره على الأداء ، ويزجره ويعاقبه على التضييع .

والخلافة في الأرض تنبني على عنصر أساسي تستمد منه جوهر حقيقتها وجميع أبعادها ، فالمستَخْلَف يقتضي أن يكون الهمّ الأكبر له ترقيته نحو مستخلِفه ، واقترابه منه ليحقق معنى الاستخلاف على الوجه الأكمل والأتمّ ، فَهَمُّ الإنسان هو العمل دأبا للتّرقّي إلى خالقه ومستخلِفه ، حتى ترتقي نفسه وتنمى مداركه ، وبذلك يَكون قد وفّق في انتهاج المنهج الصحيح وهو منهج العبادة : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات : 56] ومعنى العبادة : إسلام النفس في كل ما يفعل الإنسان وينذر لما يريده الله [2].

ثانيا : المقصود بالتكليف .

(1) عيد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحي والعقل ، بحث في جدلية النص والعقل والواقع (المعهد العالمي للفكر الإسلامي : فيرجينيا و م أ ، ط : 03 ، 1425 ـ 2005) ، ص61 .
(2) المرجع نفسه ، ص62 .

أساس المسؤولية هو التكليف ، إذ لا سؤال بلا تكليف ، وهو عند علماء الأصول : مأخوذ من الكلفة على وجه التفعيل ومعناه الحمل على ما فِي فعله مشقة ويندرج تحته الإيجاب والحظر[1] ، أو هو إلزام المُكَلَّفِ ما في فعله كُلْفَة وهي النَّصْبُ والمَشَقَّة[2] ، وقريب إلى هذا نجده عند شارح المرشد المعين بقوله : « التكليف هو إلزام ما فيه كلفة ، أو هو طلب ما فيه كلفة » [3].

والتكليف بالمهمّة الوجودية والتي هي الخلافة ، هو مخاطبة الإنسان بمضمون الخلافة ، وتمكينه من الاختيار بين أن يفي بما كُلِّفَ به ، وبين أن يخِلَّ بالتزامه ، على أساس من حرية الإرادة في الاختيار بين الإيفاء والاختيار [4].

وبهذا يكون التكليف حمل الأمانة التي ناءت عن حملها غيره من المخلوقات ، فالمسلم مسؤول عن أمانة التكليف من فعل الأوامر وترك النواهي ، وأمانة ما استودعه الله عزّ وجلّ فيه من ملكات فطرية ، ووسائل لتحصيل العلم والمعرفة[5] ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾[الإسراء : 36] ، وهو مسؤول عن عمارة الأرض ، وما أوكل إليه من مهمة الخلافة فيها[6] . قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب : 72] ، والأمانة المقصودة هنا ـ وإن كانت هناك أقوال ـ تعمّ جميع وظائف الدّين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور [7] . ومن بين المعاني التي تضمنتها الأمانة كما قيل في تفسيرها الخلافة ، وهي خلافة الله في الأرض التي أودعها الإنسان ، وهي تندرج في تفسير الأمانة بالعقل ، لأن الأمانة بهذا المعنى من الأخلاق التي يجمعها العقل ويصرّفها ، ومعنى الأمانة كذلك ما هيّأ الإنسان لها ، وخلافته في الأرض هي القيام بحفظ العمران ووضع الموجودات فيها في مواضعها ، واستعمالها فيما استعدّت إليه غرائزها [8].

وهذه الوظيفة التي كُلّف الإنسان بها ، هُيِّئ في أصل خِلقته للاضطلاع بها ،

(1) أبو حامد الغزالي : المنخول ، تحقيق : محمد حسن هيتو (دار الفكر : دمشق ، ط : 02 ، 1400 ـ 1980)، ج : 01 ، ص21 .
(2) ابن العربي : أصول الفقه ، ص 05 .
(3) محمد بن أحمد ميّارة المالكي : الدرّ الثمين والمرود المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين (دار الفكر : بيروت ، د ط ، 1429 ـ 2008) ، ص 22؛ وأبو حامد الغزالي : المستصفى ، تحقيق : محمد عبد السلام عبد الشافي(دار الكتب العلمية : بيروت ، ط : 01 ، 1413 ـ 1993) ، ج : 1 ، ص60
(4) عبد المجيد النجار : المرجع السابق ، ص 64 .
(5) فتحي الدريني : خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم (مؤسسة الرسالة : بيروت ، ط : 01 ، 1982) ، ص 497 .
(6) صفاء موزة : المرجع السابق ، ص 104 .
(7) الجامع لأحكام القرآن ، تقديم : هاني الحاج ، تحقيق وتخريج : عماد البارودي ، وخيري سعيد(المكتبة التوفيقية : مصر ، د ط ، د ت) ، ج : 14 ، ص205 .
(8) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير(الدار التونسية للنشر : تونس ، والمؤسسة الوطنية للكتاب : الجزائر ، د ط ، 1984) ، ج : 22 ، ص129 .

وإنجازها على الوجه الأكمل ، ويتمثّل ذلك بالأخص في حقيقتين أساسيتين :

الأولى : طبيعة التركيب الذاتي للإنسان ، هذا التركيب يشتمل على جزء روحي يمكنه من السمو والعلو نحو الأفق الإلهي الأعلى ليقتبس من هذا الأفق مضمون الخلافة أمراً ونهياً على سبيل الإدراك والاستيعاب والتحمّل ، كما يشمل على جزءٍ ماديٍ يُمكّنه من مباشرة الأرض بالسعي فيها للإنشاء والتعمير .

وأما **الثانية** : فهي حقيقة التكليف : فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي حمل أمانة التكليف في حين أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها [1].

وهذا الإعلان الإلهي عن خلق الكائن الجديد « **الإنسان** » : ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[البقرة : 30] ، جاء مرفوقا ببيان المهمّة التي أنيط بعهدته الاضطلاع بها ، بل هذه التسمية كانت بحسب وظيفته وهي الخلافة ، فسمي **بالخليفة** ، وهذا التعبير القرآني ينطوي على دلالة بالغة في إبراز هذه الوظيفة والتنويه بشأنها ، ولا زال القرآن الكريم ، بعد هذا الإعلان الأول يعظّم هذه المهمّة ويبيّن محتواها وأهدافها ، مثل قوله : ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[الأنعام : 165] وقوله : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا**﴾[فاطر : 39] .

الفرع الثاني : قانون التعاون أساس المسؤولية

أولا : المقصود بقانون التعاون .

قانون التعاون عام وحاكم في التشريع الإسلامي وهو مستمد من قوله تعالى : ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[المائدة : 02] ، الذي يقتضي ظاهره إيجاب التعاون على كل ما كان لله تعالى ، لأن البر هو طاعات الله وقوله : ﴿**ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾ نهى عن معاونة غيرنا على معاصي الله[2] .

يأمر الله تعالى عباده بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر وترك المنكرات وهو التقوى وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم .

وهذا القانون هو الأساس العام للمسؤولية في القرآن الكريم ، على المستوى الفردي والجماعي ، كما يرتبط هذا النوع من المسؤولية بعقيدة الاستخلاف أيضا ، لقوله تعالى : ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[النور : 55] . فالأمّة الإسلامية أفرادا وجماعات ، نائبة عن الله ، في مباشرة مهمّتها وفق عهد الاستخلاف ، وهي مكلّفة بها ، ومن ثمّ نشأ أساس مسؤوليتها

(1) عبد المجيد النجار : المرجع السابق ، ص63 ـ 64 .

(2) أبو بكر الجصاص : أحكام القرآن الكريم ، تحقيق : محمد الصادق قمحاوي(دار إحياء التراث العربي : بيروت ، د ط ، 1405 ـ 1985) ، ج : 03 ، ص296 .

بوصفها الجماعي [1].

ثانيا : كونية قانون التعاون .

قانون التعاون الذي وضعه الله في الخلق ضمن القوانين التي تحكم البيئة وعناصرها ، فهو قانون جار ظاهر ، مهيمن على الكون كله ابتداء من جري الشمس التي تهيئ لوازم الحياة للأحياء ، ومن القمر الذي يعلمنا المواقيت ، وانتهاء إلى إمداد الضوء والهواء والماء والغذاء لذوي الحياة ، ومن تعاقب الليل والنهار وترادف الشتاء والصيف ، إلى إمداد النباتات للحيوانات الجائعة ، وإلى سعي الحيوانات لمساعدة الإنسان الضعيف المكرّم ، بل إلى وصول المواد الغذائية على جناح السّرعة للإغاثة الأطفال النحاف ، وإمداد الفواكه اللطيفة ، بل إلى خدمة ذرات الطّعام لحاجة حجيرات الجسم . . كلّ هذه الحركات الجارية وفق دستور التعاون ، وانقيادها له وارتباطها معا ارتباط تفاهم وتجاوب في منتهى الحكمة ، وفي منتهى الإيثار والكرم جعل كلاً منها يسعى لإغاثة الآخر وإمداده بلوازم حياته ، ويهرع لقضاء حاجياته وإسعافه [2].

و مبدأ ﴿**وتعاونوا على البرّ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾ التي تستند إليها مسؤولية الإنسان عن أعماله ، يتضمنها قانون التعاون بين العناصر البيئة بما فيها الإنسان ، وهو أساس من أسس الحياة المدَنِيَّة في القرآن الكريم ، الذي من شأنه التساند والاتحاد ، والذي يرقى بالإنسان إلى ما يليق به ، وهو مستوى الخليفة .

ثالثا : كيفية التعاون .

والقيام بواجب العون والنصح بصورة فردية أو جماعية ، هو من مقتضيات الحكم الصالح والراشد ، القادر على تأمين مصالح الأمة ، عبر جميع منابر التواصل الاجتماعي بمختلف مستوياتها ، مما يلح بضرورة قيام المؤسسات بمهمة العون والنصح مثل مؤسسة الحسبة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ، من خلال قنواتها الداخلية وتفاعلها مع قضايا البيئة ، وهي من أهم الواجبات الكفائية التي لا يمكن التهاون في أدائها ، إن لم نقل أن معظم قضايا البيئة ارتقت إلى درجة الوجوب لما تعيّنت مواجهتها على الجميع ، كل على حسب مكانته ومقدرته ، وحسب علمه ومكان عمله .

ويتجلى عمل مؤسسات العون والنصح في محاربة الفساد والإفساد في البيئة ، في إنشاء الجمعيات والمنظمات الحكومية وغير الحكومية ، والنقابات المهنية والحرفية ، والرابطات والمجامع العلمية ، وغيرها من الهيئات التي تمارس دورها في المجتمع من

(1) فتحي الدريني : خصائص التشريع الإسلامي في الحكم والسياسة(مؤسسة الرسالة : بيروت ، ط : 01 ، 1402 ـ 1982) ، ص500 ـ 502 .

(2) أورد الإمام النورسي رحمه الله هذا القانون في معرض الدلالة على وجود الله تعالى و بيان أسمائه الحسنى وصفاته العلا ، بأسلوب محكم و شيق وسلس ، مع ضرب أمثلة تقنع العاقل اللبيب . لمن يريد التوسع ، يراجع : بديع الزمان النورسي : الكلمات ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي (دار النيل : القاهرة ، ط : 01 ، 1428 ـ 2007) ، ص335 ـ 336 و772 .

نصح وعون وإرشاد ، وإيجاد قنوات فاعلة ومؤثرة تنتج أثرا في حماية البيئة من كل صور الفساد ، بل تتطور لتصبح قنوات مغذية في كل مؤسسة لها مهمة صنع القرار .

وهذه المسؤولية لا يفهم أنها من قبل الواجبات أو الفروض الكفائية التي تنتهي بمجرد قيام البعض من أفراد المجتمع أو فئة من فئاته ، دون الإشعار بمسؤولية المتابعة التي تتمثل في حمل القادر والمتعيّن عليه الواجب الكفائي ، مع إيصال الأداء إلى درجة الكفاية ، لأن هذا الفهم يؤدي إلى قصر الهمم في القيام بعمل العون والنصح والإرشاد بل المراقبة على أعمال الأفراد والمؤسسات ، والتي تحدث من الإفساد ما لا يمكن أن يحصيه المرء لوحده (1).

المبحث الثاني : أبعاد المسؤولية البيئية

المقام المتميّز للإنسان بين سائر المخلوقات جعله على درجة كبيرة من المسؤولية ، فهو الكائن الوحيد الذي يتصرّف تصرفًا بيئيًا إراديا ، تقوم فيه الصورة الذهنية لحقيقة البيئة كما ترتسم في الذهن الإنساني بدور مهم ، بينما باقي الكائنات تتصرّف تصرّفا بيئيا يتّصف بالحتمية الآلية إذ هي تنخرط في الدورة البيئية بسوق جبري من طبيعة تكوينها المادي ، ومن غرائزها الملهمة إن كانت من الحيوان .

والمسؤولية البيئية ناتجة عن إدراك المعنى الحقيقي للبيئة يمكن من خلالها أخلاقية التعامل معها والمؤطّر لسلوكه العملي فيها .

المطلب الأول : إدراك المعنى الحقيقي للبيئة .

إذا تعرّف الإنسان على المخلوقات وعناصر البيئة التي يراها من حوله ، أدرك صلة ما بينه وبينها ، وأيقن بأن الله عز وجل ، ما أقامها إلا في خدمة الإنسان وتحقيق مصالحه ، وأنها لذلك مذللة ومسخرة له على أتمّ وجه ، فإن القرآن يبدأ فينبهه إلى حقيقة قيمتها وإلى مدى أحميتها ، ويحذره من أن ينخدع بها أو يعرض عنها ، فيضعها بسب ذلك فوق مرتبتها الحقيقية أو دونها (2).

الفرع الأول : علاقة الوحدة بين الإنسان والبيئة :

تتجلى هذه العلاقة في مظاهر متعددة ، كما أن هذه العلاقة تترتب عنها مسؤولية الاهتمام ، والالتزام بحفظها ، في وجوه نذكرها (3):

(1) يراجع في هذا الموضوع : عبد الباقي عبد الكبير : إحياء الفروض الكفائية سبيل تنمية المجتمع ضمن سلسلة كتاب الأمة التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، بدولة قطر ، السنة : 25 ، العدد : 105 ، المحرم 1426 .

(2) محمد سعيد رمضان البوطي : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن(دار الفكر : دمشق ، ط : 8 ، 1429 ـ 2008) ، ص93 وما بعدها .

(3) مأخوذ بالتصرف من كتابين ، وهما : عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان ، ص55 ـ 56؛ عبد النور بزا : مصالح الإنسان ، ص362 ـ 363 .

أولا : وحدة المأتى .

الإنسان والكون هما طرف ثان في الثنائية الوجودية في مقابل الطرف الأوّل وهو الله جلّ جلاله ، أصل الوجود ، فكل ما عدا الله حادث ، والله وحده المحدِث ، وهنا تتجلى المغايرة وعدم المماثلة ، يقول ابن عاشر رحمه الله تعالى :

وَخَالِفُهُ لِخَلْقِهِ بِلاَ مِثَالْ . . . . . (1)

فالله المصدر الوحيد ولا مصدر غيره لكل من الإنسان والبيئة ، وهو الخالق ، ولا آخر سواه ، والنصوص على ذلك كثيرة ، نذكر بعض الآيات منها ، قوله تعالى : ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان : 02]؛ وقوله : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[لقمان : 10 ـ 11]؛ ويقول : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾[الحج : 05]؛ ويقول كذلك : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[النور : 45] .

فالسؤال الذي كان يشغل الفكر الإنساني لفترة غير قصيرة ، **من أين؟** أجاب عنها القرآن الكريم وأوضحها أيما توضيح ، وبسّط فيها السبيل لمعرفة المصير بأسلوب منهجي دقيق محدد . فالإنسان والبيئة منشئهما واحد وهو الله الذي خلقهما ، فهما متحدان في المأتى إلى هذا الوجود .

ثانيا : وحدة المصير .

وهي تتمة للسابقة ، فالإنسان والبيئة لهما مصير واحد وهو الرجوع إلى الذي أنشأهما وخلقهما من عدم ، وهذا المصير محتوم على الجميع من المحدثات ، فلا ينتظر أحدهما دون الآخر ، بل الجميع فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام ، يقول الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[المائدة : 18]؛ وقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص : 88]؛وقوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن : 26 ـ 27] .

فالمصير الذي حيّر كذلك العقل البشري وأرّقه ، وهو السؤال **إلى أين؟** بات الفكر الإنساني يزخر بأفكار ونظريات لا تمت للحقيقة بشيء ، وما كان ذلك إلى لكونها بعيدة عن الوحي ونهجه ، فظل العقل البشري غير هادي لصاحبه ، فأجاب الوحي القرآني جوابا بسيطا وفق منظومة متناسقة عن المصدر والمصير ، فالكل يحكمه الفناء وعدم البقاء ، ولا قدم ولا بقاء ولا خلود إلا لله عزّ وجلّ ، كل له مصيره الذي ينتظره ، فالفناء قانون عمّ الإنسان والبيئة .

(1) قيل « وَخَلَقَهُ » وقيل « خَلْقَهُ » ، وكلا المصطلحين إذا استعمل كان صالحا صحيحا .

ثالثا : وحدة الغاية من الوجود .

لقد خلق الله الخلق وما أراد منهم إلا أمرا واحدا ، وهو العبادة ، فالله سبحانه لم يكن لتفيده طاعة أو تزيد في ملكه شيئا ، ولا لتنقص المعصية منه شيئا ، فقد خلق الإنس والجن ليعبدوه : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات : 56]؛ وقال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[الحج : 18]؛ وقال : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء : 44] .

رابعا : وحدة السنن التي تحكم الإنسان والبيئة

القانون العام الذي يحكم حياة الكائنات ، قانون واحد يحكم الإنسان ويحكم البيئة ويحكم جميع عناصر البيئة ، فقانون التغيير والحركة يخضع إليه الكل ، يقول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة : 258] ، فلا أحد يقدر أن يخرج عن هذه السنن الكونية ، أو لا يحكمه قانونها ، كما لا يمكن أن يغيّر منها قيد أُنملة ، وقانون الممات والحياة ، في قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله؟[البقرة : 259] .

كما نجد قانون الزوجية ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[يس : 36]؛ وقال كذلك : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الذاريات : 49]؛ فقانون الزوجين يسري على كل من الإنسان والبيئة بعناصرها . فالله وحده وتر يحبّ الوتر .

من خلال هذا كلّه يتبيّن لنا أن المسؤولية البيئية وفقا لهذا البعد يتصرّف الإنسان معها وفق نظرته لها ، فإن كانت نظرة وفقا للمسار الذي حدّده الشرع كانت نظرته سليمة ، وتصرفه سليما ، وأثمرت هذه النظرة ثمارا تعود بالخير والصلاح على البيئة ، وتدفع عنها كل فساد ، وخاصة إذ إنها تستمدّ كلّ ذلك من الوحي الربّاني ، وما أصاب هذه النظرة شيء من الدّجل والغموض ، أو شابها تغيير في جانب من جوانبها ، ترتّب عن ذلك لا محالة اعوجاج السلوك تجاهها ، وتعامل الإنسان بما يعد عليها بالضرر والإفساد ، وهذه زاوية تبيّن لنا مدى أهميّة إدراك الإنسان لحقيقة البيئة ووعيه بها .

الفرع الثاني : علاقة التميّز بين الإنسان والبيئة .

الإنسان كائن حي يشترك مع باقي المخلوقات بمجموعة من الخصائص ، وهذه الأخيرة ما تدلّ إلا على أنّه عنصر من عناصر البيئة ، وأنه أحد أعضاء النظام البيئي ، ويصنّف ضمن العالم الحيواني؛ لأنّه يشترك معها بخصائصها الأساسية من حيث نمط بناء الجنس والأسلوب الذي تتم فيه النّشاطات الحيوانية إلا أنّ هناك اختلافات بيّنة تجعل الإنسان يتميّز عن كل الأحياء في العالم الحيواني أي إنّ الإنسان كائنٌ حيٌ متميّزٌ ، فعندما صنّف ووضع وحيداً في عائلة خاصة وجنس خاص ونوع خاص ،

وذلك دلالة على أنّ الإنسان متميّز عن غيره من الأحياء [1]. وأما مظاهر الوحدة بين الإنسان والبيئة لا تنطوي على دلالة معيارية تؤدي إلى التساوي في القيم بينهما ، بل هي مجرّد دلالة على الاشتراك في جزء من الحقيقة ، يبقى معها مجال كبير للتميّز ، تمايز رفعة واستعلاء [2]. وتتمثّل خصائص التميّز على النحو الآتي :

أولا : التكريم .

تكريم الإنسان معناه : « جعله كريما ، أي نفيسا غير مبذول ولا ذليل »[3] . والآية التي تجمع كل سمات الإنسان وتبين المركز الصحيح له في الوجود وعمدة حقوق الإنسان هو قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء : 70] ، تدل على الرّفع الإلهي من شأن الإنسان والاحتفاء به ، وبيان المقام الأعلى له من بين المخلوقات ، وقد كرّم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه ، كرمه بخلقته على تلك الهيئة ، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان؛ وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته ، والتي استأهل بها الخلافة في الأرض ، يغير فيها ويبدل ، وينتج فيها وينشئ ، ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة؛ وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جل شانه تكريم هذا الإنسان؛ وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض [4].

ومن الكرامة ما يجده الإنسان في نفسه من وعي بذاته وبغيره من عناصر البيئة ، وعيا يتضمن الإيمان بقيمته ، ومكانته بين باقي العناصر البيئية ، والإحساس بعزّته ، واستشعارا للاستعلاء على ما يحيط به من مكوّنات الطبيعة ، والنظر إليها على أساس أنّها مسخّرة له ، وعلى عاتقه مسؤولية تجاهها .

ثانيا : الاستخلاف .

كرم الله الإنسان بالاستعدادات التي أودعها فطرته ، والتي استأهل بها الخلافة في الأرض ، يغير فيها ويبدل ، وينتج فيها وينشئ ، ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة ، وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون منها . وهو تشريف إلهي للإنسان إذ اختاره أن يقوم بمهمّة الخلافة ، يقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة : 30]؛ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾[فاطر : 39] .

(1) رشيد الحمد محمد سعيد صباريني : البيئة ومشكلاتها ، سلسلة مجلة عالم المعرفة ، العدد : 22 ، أكتوبر1979 ، ص 87 وما بعدها .
(2) عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان ، ص56 .
(3) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، ج : 15 ، ص 165 .
(4) سيد قطب : في ظلال القرآن ، تفسير سورة الإسراء .

والنعمة التي يمتن الله بها على الإنسان هنا سيادته على ما في الأرض جميعا ، منحه قيمة أعلى من قيم الماديات التي تحويها الأرض جميعا . . . هي نعمة الاستخلاف والتكريم فوق نعمة الملك والانتفاع العظيم ، فالمشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود ، زمام هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحوير والتبديل؛ وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وثروات ، وتسخير هذا كله ـ بإذن الله ـ في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه ، الخلافة في الأرض[1].

ثالثا : التسخير .

فالله تعالى مكّن الإنسان من استغلال هذا الكون وهذه البيئة من أجل القيام بمهمته التي كلّفه بها على أكمل وجه ، كما سخّر له السموات والأرض ، فهو من تمكين الله للإنسان في الأرض ، كما قال : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[الأعراف : 10]؛ ومن صور التمكين القدرة على الانتفاع بمختلف عناصر البيئة إلى أبعد الحدود ، فقد أوجد السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فيه زرق الإنسان ، وذلّل السّفن التي تجري في البحر للانتفاع والركوب والتصرف ، كما ذلّل الأنهار للمتعة والزراعة والسياحة ، وتوليد الكهرباء والطاقة ، كما أوجد الشّمس والقمر للإضاءة ، ومعرفة الحساب والسّنين ، وجعل منها النهار للكدح والكد والمعاش ، وجعل له في مقابل ذلك الليل للسّكن والراحة والسّبات ، فأعطى الإنسان من كل ما يحتاجه ويطلبه لقيام مهمّة الاستخلاف ، وقال في شأن تسخيره لعناصر البيئة في سورة النّحل : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الآيات : 10 ـ 18] .

والله سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآيات ألوانا من التسخير الإلهي للإنسان في خلقه لبعض العناصر البيئية ، فمن البحر يأكل لحما طريّا ، ويستخرج منه حليَةً للباس والزينة ، وجعل الماء الذي ينزل من السماء شرابا وسقاء للمراعي والمزارع والمواشي ، مصدر رزقه ، ويخرج منه الخضر والفواكه المتنوعة التي تشتهيها الأنفس وتتلذّذ بها ، وجعل في السماء نجوما ليهتدي بها الإنسان في الفلاة ، فلا يظل ولا يتيه ، فهي أمارات له عن معرفة الجهات والنواحي ، وبها يرجم الشياطين التي تتآمر على الإنسان ، وغير ذلك من صور التسخير التي لا يمكن للإنسان حصرها وإن عكف على ذلك السنين ،

(1) في ظلال القرآن ، تفسير سورة فاطر ، وسورة البقرة .

وقد نبّهه على ذلك ربّه جلّ جلاله وهي نعمة من ربّ العالمين في عدم تضييع الوقت في ذلك : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فضلا عن أن تؤدوا حقها من الشكر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ واسع المغفرة للذنوب والتقصير عن شكرها ، فهو رحيم عليهم أوجد لهم النعم ، وإن لم يشكروها . فاللّهمَّ لك الحمد والمنّة [1].

المطلب الثاني : أخلاقية التعامل مع البيئة .

والبعد الثاني للمسؤولية البيئية يتمثّل في الالتزام بالنظام الأخلاقي الذي أرساه القرآن الكريم في التعامل مع البيئة [2]. وهذه العلاقة أساسها المحبّة والرفق ، والتعاون والسّلام ، وغيرها من القيم التي تجعل مبدأ الارتفاق أساس التعامل ، وهو ما نفصّل الكلام فيه في البعد الثاني لأبعاد المسؤولية البيئية .

الفرع الأول : مبدأ الارتفاق .

جاء في لسان العرب : الرفق : ضد العنف ، ورفق أي لطف ، ويقال : أرفقته : أي نفعته ، وهو به رفيق لطيف ، والرفق : لين الجانب ولطافة الفعل [3].

والبيئة بشقيها الطبيعي والمشيد هي كل متكامل يشمل إطارها الكرة الأرضية ، أو لنقل كوكب الحياة ، وما يؤثر فيها من مكونات الكون الأخرى ، ومحتويات هذا الإطار ليست جامدة بل إنها دائمة التفاعل ، مؤثرة ومتأثرة ، والإنسان نفسه واحد من مكونات البيئة يتفاعل مع مكوناتها بما في ذلك أقرانه من البشر ، وقد ورد هذا الفهم الشامل على لسان السيد « يوثانت» الأمين العام للأمم المتحدة حيث قال : « إنّنا شئنا أم أبينا نسافر سويا على ظهر كوكب مشترك . . . وليس لنا بديل معقول سوى أن نعمل جميعاً لنجعل منه بيئة نستطيع نحن وأطفالنا أن نعيش فيها حياة كاملة آمنة» . وهذا يتطلب من الإنسان وهو العاقل الوحيد بين صور الحياة أن يتعامل مع البيئة بالرفق والحنان ، يستثمرها دون إتلاف أو تدمير . . . ولعل فهم الطبيعة مكونات البيئة والعلاقات المتبادلة فيما بينها يمكن الإنسان أن يوجد ويطور موقعاً أفضل لحياته وحياة أجياله من بعده[4].

إن العلاقة التي تنشأ بين الإنسان والبيئة تكون وفق الإدراك الحقيقي لماهية البيئة ، تكون العلاقة جديدة وبين الإنسان والحيوان أو النبات أو الجماد ، فهي تكون على أساس الأخلاق والقيم التي يجمعها مبدأ الارتفاق ، وهي أخلاق المحبّة والسّلام ، وأخلاق التعاون والارتفاق ، وغيرها ، وتتأسّس من خلالها ، كما يقول الدكتور النجّار : « هي قواعد التعامل

(1) يراجع التفاسير ، في تفسير الآيات ، منها : سيد قطب : في ظلال القرآن ، وهبة الزحيلي : التفسير الوجيز ،
(2) عدنان على رضا النحوي : المسؤولية الفردية في الإسلام (دار النحوي : الرياض ، ط : 01 ، 1419 ـ 1999) ، ص44 ، نقلا عن : صفاء موزة : المرجع السابق .
(3) ابن منظور : لسان العرب(دار صادر : بيروت ، د ط ، 1412 ـ 1992) ، ج : 10 ، ص 118 .
(4) بركات محمد مراد الإسلام والبيئة : رؤية إسلامية حضارية (دار القاهرة : مصر ، 1423 ـ 2003) ، ص 13؛ عبد العزيز خليفة القصار و وليد خالد الشايجي : الشريعة الإسلامية وحماية البيئة ، مجلة كلية الشريعة والقانون بالقاهرة ، العدد الواحد والعشرون ، 1998 ـ 1999، ص 260 .

مع الكون في الحضارة الإسلامية كما كانت قائمة ، وكما نريد أن تقوم مستأنفة ، بيدا عمّا آلت إليه حضارات أخرى من اعتزال عنه ، أو ارتهان له ، أو صراع دائي معه » [1].

يعتمد الإسلام مبدأ الرِّفق بِصورة عامَّةٍ في جميع شؤون الحياة ، فيجعل منه سِمة تُميَز المؤمن ، وعنصراً يُقوِّي الإيمان ، وفضيلة تزَين العمل ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم : « **إنَّ الله رفيقٌ يحب الرِّفق في الأمر كله** »، وفي رواية لمسلم : « **إنَّ الله رفيق يحبُّ الرفق ، ويعطِي على الرِّفق ما لا يُعْطي على العُنف ، وما لا يعطي علي سواه** »، وروى مسلم بِسَنده عن عائشة رضي الله عنها : « **إنَّ الرِّفق لا يكون في شيءٍ إلاَّ زانَه ، ولا يُنْزَع مِن شيءٍ إلا شَانَه** » .

والرفق بالبيئة يندرج ضمن المنهج العقدي للمسلم ، إذ اعتبر الفساد في الأرض من نواقض الإيمان الصحيح ، بل هو مظهر من مظاهر النفاق؛[2] كما جاء في قوله تعالى : ﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾[البقرة : 205] .

أولا : الرفق في الأمر كله .

روي أن النبي ﷺ ، قال : « **يا عائشة! إن الله يحب الرفق في الأمر كله** »[3] ، وأنّه قال : « **من يحرم الرفق ، يحرم الخير** » . وقال : « **يا عائشة! إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على ما سواه** » . عن النبي ﷺ قال : « **إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه** »، وهو ما نصح به أمّنا عائشة رضي الله عنه : « **عليك بالرفق : حينما كانت تردّد على بعيرها** » [4].

والحديث جاء بصيغة العموم ، مما يفيد القول أن الرفق الذي يحبّه الله لا ينحصر على أمر دون آخر ، فيشمل الرفق في التعامل مع البيئة وعناصرها ، من حسن الصيانة والاستنفاع بها ، والإفادة منها ، فيمثّل جميع الأخلاق ، فيرحم البرّ والفاجر ، والناطق والمبهم ، والوحش والطّير [5].

وقال رسول الله ﷺ : « **أكرموا بني عمّاتكم النّخل** »[6] وقد شبّه الرسول ﷺ النخل بالرجل المؤمن تشرب برأسها وإذا قطعت ماتت ، وهي الشجرة التي ينتفع بأجزائها ، والشجرة الطيبة في القرآن الكريم [7]. وجاء كذلك قوله ﷺ : « **ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء** » .

---

(1) الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية؛ فقه التحضّر الإسلامي (دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط : 01 ، 1999) ، ج : 01 ، ص 127 وما بعدها .

(2) عبد المجيد النجار : قضايا البيئة من منظور إسلامي ، ص254 .

(3) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب السلام باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يرد عليهم

(4) رواها مسلك في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الرفق ، تحت رقم : 2592 ـ 2594 .

(5) المناوي : الفتح القدير بشرح الجامع الصغير ، ج : 01 ، ص473 .

(6) أخرجه أبو يعلى في المسند ، ج : 1 ، 353 . ؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء ، ج : 6 ، ص123 .

(7) محمد الشربيني الخطيب : الإقناع (دار الفكر : بيروت ، د ط ، 1415 ـ 1995) ، ج : 2 ، ص345 . ؛ وكتاب : مغني المحتاج(دار الفكر : بيروت ، د ط ، د ت)ج : 2 ، ص323 .

فهذه الأحاديث النبوية تؤسس إطارا أخلاقيا في تعامل الإنسان مع البيئة يؤطِّر كلّ سلوكه العملي فيها ، بحيث تندرج كل التوجيهات المتعلقة بذلك السّلوك في ذلك الإطار الأخلاقي ، إضافة لاندراجها في الإطار العقدي . وفي هذا الإطار العقدي الأخلاقي جاءت الضوابط الإسلامية توجّه السّلوك الإنساني العملي في البيئة توجيها ذا طبيعة تشريعية ملزمة ، يجعل ذلك السلوك متوخيّا الرّفق بها واللين معها في مسعى الإنسان لاستفاعه منها ، بحيث يتمّ ذلك دون أن يصيبها أذي أو ضرر يخل بعناصرها أو يخلّ في نظامها العام [1].

ثانيا : مقصدية الرفق .

بلغ الحرص بالبيئة وعناصرها في شريعة الإسلام أقصى ما يمكن أن تبلغه التشريعات التي تتعلّق بها ، فنجد نصوصها تتضافر في جعل الرفق بالبيئة مقصدا من مقاصدها ، ففي القرآن الكريم وفي الحديث الشريف من التشريعات البيئية العملية المندرجة ضمن الرفق بالبيئة والهادفة إلى الحفاظ عليها ، عدد كبير بعضه مباشر وبعضه غير مباشر ، وهو يبلغ من الاطّراد في المعنى ومن التنوّع في المناط ومن التّعدد في المقامات ما يرتقي بالرّفق بالبيئة بمعناه الشّامل إلى أن يكون مقصدا قائما من مقاصد الشريعة ، تهدف إلى تحقيقه تلك التشريعات من منطلقاتها المختلفة والمتعدّدة ، وذلك ما كان معنى حاضرا في الحضارة الإسلامية ، حيث قامت الاجتهادات والتشريعات في مختلف امتدادات تلك الحضارة تجسّمه وترعاه ، وفي معرض التعدد والتنوع في تلك التشريعات التي تهدف جميعها إلى تحقيق مقصد الرفق بالبيئة[2] ، وخير مثال نسوقه هنا مؤسسة الحسبة ، يقول الدكتور القرضاوي في هذا الشأن : « ومن قرأ بعض كتب الحسبة يتبين له هذه الحقيقة جلية كالشمس . . . إن مؤسسة الحسبة نكاد لا نجد لها نظيرا في الحضارات الأخرى ، فهي تختص في شطر كبير منها بالعمل علي التطبيق العلمي للفتاوى والأحكام المتعلقة بالحفاظ علي البيئة كالمنع من التلوث ، سواء كان تلوثا مباشرا بمختلف الملوثات الغازية والسائلة واليابسة ، أم كان تلوثاً غير مباشر بالإخلال بالتوازن الكمي والكيفي للمكونات البيئية .

وقد سجلت لنا المدونات الكثيرة في الحسبة كيف كانت هذه المؤسسة تسهر عمليا بأجهزتها وأعوانها علي المراقبة الدورية الدائبة في مختلف المدن والأرياف الإسلامية ، لأحوال المصانع والمتاجر والأسواق وحظائر الحيوانات ومزارع الخضر والفواكه ، لتمنع كل ما من شأنه أن يلوث البيئة من أدخنة وعفونات وسموم ، ومن إتلاف لأشجار وحيوانات ، وذلك للحفاظ عليها من الخلل المضر بالحياة في صوره المختلفة . وحينما ينضم هذا الإجراء العلمي التطبيقي الذي دأبت عليه الحضارة الإسلامية للصيانة من التلوث إلى تلك الفتاوي والأحكام النظرية المواكبة للتطور

(1) عبد المجيد النجار : قضايا البيئة ، ص255 .
(2) لمزيد من التوسع يراجع ، عبد المجيد النجار : قضايا البيئة ، 257 وما بعدها .

الحضاري في هذا الشأن ، فإنه يتبين مدي ما كانت عليه الحضارة الإسلامية من رفق بالبيئة بالحفاظ عليها من التلوث ، ومدي ما أنجزت في ذلك نظرياً وعملياً » (1).

ويتبيّن هنا أنّ مقصد الرفق بالبيئة ينتهي إلى محورين أساسيين : محور يبتغى به صيانتها والحفاظ عليها بتجنيبها ما يمكن أن يلحق بها الخلل من التصرفات الإنسانية ، وبتنميتها تنمية تجبر ما أخذ منها؛ ومحور يبتغى به القصد في الاستهلاك من مواردها بما تتحمّله طبيعتها وما تقتضيه الحاجة الإنسانية ، بحيث لا يكون ذلك الاستهلاك مفضيا إلى إرهاق لها يسبب خللا لا تتحمّل جبره (2).

ثالثا : مظاهر الرفق .

وردت في السنة النبوية أحاديث متعددة في الرفق بعناصر البيئة ، وذلك بالمحافظة عليها وحمايته ، والمنع من التعدي عليه ، أو تعريضه للهلاك ، والرِّفق الكامل بها ، باعتبار أن كل عنصر جزء من البيئة ، وجزء من الكون الذي خلقه الله تعالى متكاملا متناسقا ، وقد اتخذ لتحقيق هذا الغرض أساليب متعددة ، وقد اتخذ الرِّفق في السنّة النبوية مَظَاهر مُتَعدِّدة **منها** :

الرفق في استعمال الماء ، إذ ورد في سنن ابن ماجه ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال : « **ما هذا السرف؟** » فقال : أفي الوضوء إسراف؟ قال : « **نعم ، وإن كنت على نهر جار** » (3). وقال الشافعي رحمه الله : « وقد يرفق الفقيه بالقليل فيكفي ، ويخرق الأخرق فلا يكفي » (4).

كما يشمل الرِّفق الحيوان عند الانتفاع به ركوبا ، أو حَمْلا ، أو ذَبْحا . جاء عن سَهْل بن الحَنْظَلِيَّة رضي الله عنه قال : « **مرَّ النبي ﷺ بَبَعِيرٍ قد لَحِق ظَهْرُه بِبَطْنه ، فقالَ : اتَّقُوا الله في هذه البَهَائِم المُعْجَمَةِ فارْكَبُوها صَالِحةً ، وكُلُوها صَالِحَةً** » (5) .

قال الإمام المناوي رحمه الله : « **اركبوها صالحة** » يعني : تعهّدوها بالعلف ، لتتهيأ لما تريدونه منها ، فإن أردتم ركوبها وهي صالحة للركوب قوية على المشي بالراكب فاركبوها ، وإلا فلا تحملوها ما لا تطيقه ، وكالركوب التحميل عليها ، وقوله : « **كلوها صالحة** »أي : وإن أردتم أن تنحروها وتأكلوها فكلوها حال كونها سمينة صالحة للأكل ، وخص الركوب والأكل لأنهما من أعظم المقاصد » (6) .

ومن ذلك ما ثبت عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال : « **أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ . . . ثُمَّ قالَ : فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ**

(1) يوسف القرضاوي : رعاية البيئة في الإسلام، ص246 ـ 247 .
(2) لمزيد من التوسع يراجع ، عبد المجيد النجار : قضايا البيئة ، 257 وما بعدها .
(3) سنن ابن ماجه ، ج 1 ، ص 147 ، ومسند الإمام احمد بن حنبل ، ج : 2 ، ص 221؛ ورد عند صاحب مصباح الزجاجة تضعيف لإسناد هذا الحديث ، ج : 1 ، ص 62 .
(4) العيني : عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، ج : 3 ، ص 95 .
(5) رواه أبو داود في السنن ، تحت رقم : 2548 .
(6) فيض القدير في شرح الجامع الصغير ، (دار الفكر : بيروت ، د ط ، د ت)ج : 1 ، ص125 .

ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ(1) **، فَسَكَتَ فَقَالَ : مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقَالَ : لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَفَلا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ التِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا ، فَإِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُه وَتُدْئِبُه»**(2)

فَهذه الشكوى تشير إلى الرَّحمة بالحيوان ، وحسن الرِّعاية من الإنسان به ، ومعنى (تدْئِبه) : أي تُتْعِبه بكثْرة استخدامه واستعماله (3).

وعَنْ شدَّادِ بن أَوْس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قالَ : « **إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلتم فَأَحْسِنُوا القِتْلَة ، وإذا ذَبَحْتم فأحسِنوا الذِّبْحَة ، ولْيُحِدَّ أَحَدُكُم شَفْرَتَه ، ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَه** » (4).

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال : « **مرَّ رسولُ الله ﷺ على رَجُلٍ واضِعٌ رِجْلَهُ على صَفحَةِ شَاةٍ وَهو يَحدُّ شَفْرتهُ وَهِي تَلْحَظُ إليهِ بِبَصَرِها ، فقالَ : أَفَلا قَبْلَ هَذا ، تُرِيدُ أَنْ تُمِيتَها مَوْتَتَيْن** » (5).

ومِنْ مظاهر الرفق بالحيوان نَهيه عليه الصلاة والسلام عن إنهاك الحيوان بالجلوس على ظهره دون حاجة لوقت طويل ، فقال : « **إيَّاكم أن تَتَّخذوا ظُهُور دَوَابِّكم منابر ، فإنَّ الله إنما سَخَّرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشقِّ الأنفس ، وجعل لكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجتكم** »(6) . كما توافرَتِ النُّصوص على أنَّ الإحسان إلى الحيوان والرِّفق به عبادة منَ العبادات ، التي قد تصل في بعض الأحيان إلى أعلى درجات الأجر ، وأقوى أسباب المغفرة ، أخرج مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة ، بِسَنده إلى أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **إنَّ امرأةً بَغِيًّا رأتْ كَلْبًا في يومٍ حارٍّ ، يطيف بِبِئْرٍ ، قد أَدْلَعَ لِسَانه منَ العَطَش ، فَنَزَعَتْ له بِموقها ـ أي : اسْتَقَتْ له بِخُفِّها ـ فغفِر لها** »، فقد غفر الله لهذه البَغِي ذُنوبها؛ بِسَبب ما فعَلَتْه من سقي هذا الكلب .

وبِنَفس القدر الذي أوصلتْ به الشَّريعة الإسلاميَّة به الإحسان إلى الحيوان ، والرفق به إلى أعلى درجات العِبادة ، أَوْصَلَتِ الإساءة للحيوان وتعذيبه إلى أعمق دركات الإثم والمعْصية ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ على ما أخرجه البخاري ومسلم : « **عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّة ، لَمْ تُطْعِمْها ، ولم تسقها ، ولَمْ تَتْرُكها تأكل مِن خَشاش الأرض** » .

وبهذا امتازت حضارتنا الإسلامية في معاملة الحيوان بأمرين لا مثيل لهما عند الأمم القديمة والحديثة :

أولها : إقامة مؤسسات اجتماعية للعناية بالحيوان ، وتأمين معيشته عند العجز

(1) الذفر هو مؤخرة الرأس .
(2) رواه أبو داود في السنن ، تحت رقم : 2459 ، والإمام أحمد في المسند ، ج : 1 ، ص 205 .
(3) عون المعبود شرح سنن أبي داود 159/7 .
(4) رواه مسلم في الجامع الصحيح تحت رقم : 1955 .
(5) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ، ج : 4 ، ص 53 ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رجاله رجال الصحيح ، ج : 4 ، ص 42 .
(6) رواه أبو داود في السنن تحت رقم : 2557 .

وأمراض الشيخوخة .

وثانيهما : أن حضارتنا خلت من محاكمة الحيوان ، لأنها نادت برفع المسؤولية الجنائية عنه قبل أربعة عشر قرنا ، كما خلت من مظاهر القوة والتحريش بين الحيوانات [1].

الفرع الثاني : الود والحب للبيئة .

من أجمل ما جاء به الإسلام في علاقة الإنسان مع البيئة ، إنشاء عاطفة الود والحب مع ما حوله من كائنات حية أو جامدة ، وهذه العاطفة كان أساسها :

أولا : عناصر البيئة أمم مثلنا .

الإنسان المسلم ينظر لما حوله من المخلوقات ، من دواب وطيور ويراها أمما أمثالنا ، إذ لكل أمّة خصائصها وطرائقها وأساليبها في التواصل والتعامل ، والعيش ، نبّه إلى هذه القيمة القرآن الكريم : ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾[الأنعام : 38] . والدابّة أصلها الصفة من دَبَّ فهو دابّ إذا مشى مشيا فيه تقارب خَطو ، كما ثبت في حديث رسول الله ﷺ : « **لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها** »[2] ، وللمماثل وجوه كثيرة اهتدى بعض العلماء إلى بعضها ويجوز أن يهتدي غيرهم إلى غيرها ، فقد قالوا في وقوله ﴿**أمثالكم**﴾ الطير أمة والإنسان أمة والجن أمة والكلاب مماثلة بالصفات المشتركة ـ المقومات والمشخصات ـ المماثلة في أصل الخلق المماثلة في الغاية . . . [3] جاء في تفسير القرطبي : « أي هم جماعات مثلكم في أنّ الله خلقهم ـ وحدة المأتى ـ ، وتكفل بأرزاقهم ، وعدل عليهم ، فلا ينبغي أن تظلموهم ، ولا تجاوزون فيهم ما أمرتم به » [4].

فلا يتسبّب لها بالهلاك والفناء لاعتبارها أمة ، كما صرّح بذلك الحديث النبوي ، كون اعتبارها أمة منع قتلها .

وهو المنهج الذي ينبغي للإنسان أن يسير وفقه في معاملته مع البيئة ، فلا يتجاوز الحدود حتى لا يحدث فيها أضرارا ، ويلحق بها الأذى .

كما أن من مقتضيات المماثلة بين بني البشر وباقي عناصر البيئة ، المماثلة في حق الحياة ، فلا يقوم بأي عمل أو تصرّف يفقد عناصر البيئة الحياة ، بمعنى ألا يقوم الإنسان بطريق مباشر أو غير مباشر بالإضرار بالبيئة الطبيعية والكائنات الحية . والمتأمل في توجيهات الشريعة الإسلامية في هذا الشأن يجد أنّها تنهى نهيا مؤكدا عن كل ممارسة بيئية تؤدي إلى إتلاف شيء من البيئة ، سواء كان متمثلا في إتلاف أفراد من مفرداتها ، أو في نوع

(1) مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ، باب الرفق بالحيوان ، ص 177 .
(2) رواه ابن ماجه السنن ، كتاب الصيد ، باب النهي عن اقتناء الكلب إلا كلب صيد أو حرث أو ماشية ، عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه .
(3) يراجع : رشيد رضا : تفسير المنار ، ج : 07 ، ص391 ـ 394 .
(4) المؤجع السابق ، ج : 6 ، ص362 .

من أنواعها ، أو غي نظام من أنظمتها؛ والمقصود بالإتلاف هنا هو الذي يتمثّل في أحد النوعين : الإتلاف العبثي الذي ليس وراءه منفعة حقيقية للإنسان ، والإتلاف الذي يفضي إلى عجز البيئة عن التعويض الذّاتي لما يقع إتلافه فيؤول إلى الانقراض [1].

ومن مظاهر النهي عن التصرف الإتلافي في البيئة ، صيانة لمقدراتها وحفاظا على نظامها بالحفاظ على مكوناتها ، نهيه ﷺ عن قتل العصفور عبثا ، حيث قال : « **من قتل عصفورا عبثا عجّ إلى الله يوم القيامة يقول : إنّ فلانا قتلني عبثا ، ولم يقتلني منفعة** »[2]؛ وكذلك الأمر بالنّسبة لإتلاف النّبات ، فقد قال ﷺ في هذا الشأن : « **من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النّار** »، وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث ، فقال : هذا الحديث مختصر ، يعني من قطع سدرةً في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صوّب الله رأسه في النّار[3] ، فالقطع المتوعّد فيه هو الذي يكون عبثا وظلما بغير حق .

كما المماثلة تعني كذلك أن عناصر البيئة خلقت لحكمة معيّنة لتقوم بوظيفتها المنوطة بها ، وما كان خلق الله عبثا ، فلا ينبغي للإنسان أن ينتهك تلك الحكمة ، وأن تحترم بعدم إتلافها عبثا حتى لا تتعطّل عن أداء مهمّتها ، بل الواجب عليه صيانتها والحفاظ عليها حتى تمضي لغايتها التي خلقت من أجلها [4].

ثانيا : كونها مسبّحة وساجدة .

﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ نقل لنا الإمام القرطبي[5] في تفسير هذه الآية أقوالا متعددة ، منها القول : إنما عى أمثال لنا في التسبيح والدلالة .

يقول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ﴾[الحج : 18]؛ ويقول أيضا : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء : 44] ، وأمثالها من الآيات الجليلة التي تصرّح أنّ لأضخم الموجودات وأكثرها سَعة وشمولا تسبيحا خاصا منسجما مع عظمته وكليته ، والأمر واضح ونشاهد ، إذ السّموات الشاسعة مسبّحة لله ، وكلماتها التسبيحية هي الشموس والأقمار والنجوم ، منا أن الأرض الطائرة في جوّ السّماء مسبّحة حامدة لله ، وألفاظها التحميدية هي الحيوانات والنباتات والأشجار .

بمعنى أنّ لكل شجرة ولكلّ نجم ، تسبيحاته الجزئية الخاصة به ، مثلما أنّ للأرض برمّتها تسبيحاتها الخاصة بها . فهي تسبيحات كلية تضم تسبيحات كلّ جزء

(1) عبد المجيد النّجار : مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة ، مرجع سابق، ص212 .
(2) رواه النسائي في السنن ، كتاب الضحايا ، باب من قتل عصفورا .
(3) رواه أبو داود في السنن ، كتاب الأدب ، باب قطع السّدر .
(4) جمال الدين ضفير الإدريسي : نصوص قرآنية في شؤون بيئية (المكتبة العصرية : بيروت ، ط : 1 ، 1430 ـ 2009) ، ص 87 وما بعدها .
(5) الجامع لأحكام القرآن ، ج : 6 ، ص 362

وقطعة منها ، بل كل وادٍ وجبل وكلّ بحر وبرٍّ فيها . فكما أن للأرض تسبيحاتها بأجزائها وكليتها كذلك للسّماوات والأبراج والأفلاك تسبيحاتها الكليّة [1].

وعلى هذا الأساس الإنسان في المنهج القرآني لا يرى في العناصر المكوِّنة للبيئة إلا ساجدة وخاشعة لله سبحانه وتعالى ، وهو ما تنوه الآيات القرآنية نظرة المسلم إليه ، ومن ذلك تنشأ علاقة الحب الود تجاهها ، لكونها تعبد الله تعالى كما يفعل هو ، وهذه العاطفة يحملها الإنسان لكل من يعبد الله ، ويشترك معه فيه ، وهو ما يمكن أن نفسّر به تلك المظاهر الكونية التي حدثت عند ميلاد رسول الله ﷺ أن ذلك تناغما وفرحا بمن جاء به ليعيد العلاقة التعبّدية بين العباد وربّهم ، وكيف لا وقد جعلت بعض الظواهر مع العناصر البيئية من قبيل متا خصّ به النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فقد ورد عنه ﷺ أنّ القمر يحدّثه وهو في مهده ، ويميل حيث أشار إليه ، كما ظللته الغمامة في يوم الحرّ زمن صباه ، كما مال إليه فيء الشجرة إذا سبق إليه [2].

ثالثا : الأُنْسُ بالبيئة .

يذكر علماء الطب البديل أن الإنسان حينما يدخل إلى الغابة أو حقل فيه نباتات وأشجار فإنّه يكون في حوار معها ، وهو ما يسبب له الراحة والارتياح ، بل إنَّ البيئة المكَانيَّة؛ كما أخبرنا النَّبي الكريم ـ ﷺ ـ تحنو إلى العَبْد السَّاجِد لله ـ سبحانه ـ غير مُشْرِكٍ به بِمفارَقتِه لهَا : « **إذا مات العبد الصالح بكى عليه موضعان؛ موضع سجوده ، وموضع صعود صلاته ودَعَواته** » رواه أحمد .

وهذا الإحساس والأنس يظهر كذلك جليا بمكان الولادة ، مسقط الرأس ، إذ كتب في ذلك الأدباء وشعّر فيها الشعراء ، وقد عبّر الرسول ﷺ ، عن هذا الحبّ والود والأنس مع عناصر البيئة بهذا الحديث الرائع الذي قاله وهو عائد من غزوة تبوك ، وقد أشرف على المدينة ، ولاح له جبل أحد ، فقال : « **هذه طابة ، وهذا أحد يحبنا ونحبه** »[3] .

يقول الدكتور يوسف القرضاوي : « هذا مع أن جبل أحد وقعت بجواره غزوة أحد ، التي استشهد فيها سبعون من المسلمين ، على رأسهم عمّه حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، وربما لو كان أحد غيره لتشاءم من هذا الجبل ـ وجعله رمز شؤم ونحس ـ ، لكنه عبّر عن عاطفته نحوه بهذه الجملة المبينة الرائعة « **يحبنا ونحبه** » فكأنّما جعل من الجبل كائنا حيا عاقلا له قلب يحس ويحب ، فم يكتف بأنّه يحب أحد ، بل قال عن أحد يحبنا فما أجملها وأروعها من علاقة »[4] .

(1) بديع الزّمان سعيد النّورسي : الكلمات ، مرجع سابق ، ص184 .

(2) أحمد بن محمد القسطلاني : المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية ، تحقيق : صالح أحمد الشّامي (المكتب الإسلامي : بيروت ، ط : 02 ، 1425 ـ 2004) ، ج : 2 ، ص628 .

(3) متفق عليه عن أبي حميد . البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب حدّثنا يحيى بن بكير ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الحج ، باب أحد يحبّنا ونحبّه ، يراجع : محمد فؤاد عبد الباقي : اللؤلؤ والمرجان ، الحديث رقم : 880 .

(4) رعاية البيئة في شريعة الإسلام ، ص 30 .

هذا الإنسان يعيش على هذه الأرض ، فهي مهد له ، ومع صغرها وحقارتها قياسا إلى السموات عظيمة وجليلة من حيث المعنى والمغزى والإبداع ، حتى أصبحت بالمنظور القرآني : قلب الكون ومركزه من حيث المعنى . . ومعرضَ جميع المصنوعات المعجزة . . وموضع تجلي الأسماء الحسنى كلها ، حتى لكأنها البؤرة الجامعة لتلك الأنوار . . ومحشر الأعمال الربانية المطلقة ومرآتها . . وسوق واسعة لإبراز الخلاقية الإلهية المطلقة ، ولا سيما إيجادها الكثرة الهائلة من النباتات والحيوانات الدقيقة بكل جود وكرم . . ونموذج مصغّر لمصنوعات عالم الآخرة الواسع الفسيح . . ومصنع يعمل بسرعة قصوى لإنتاج منسوجات خالدة . . وموضع عرض لنماذج المناظر السرمدية المتبدلة بسرعة فائقة . . ومزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بُذَيرات تربّى بسرعة للبساتين الخالدة الرائعة [1].

وهذه كلها آيات تدعونا إلى أن نفكر في الصلة بين كل واحد من هذه المخلوقات والأحوال وبين الإنسان المخاطب تدعونا الآيات إلى أن نلاحظ أن كل واحد من هذه الأشياء والأحوال يحقق بالنسبة إلينا نحن البشر هدفاً ، وهذا لا يمنع أن تكون له غايات أخرى لا نعلمها [2].

وبذا تكون تصرفات الإنسان مع عناصر البيئة ومع مواردها ، كل في إطار البعد الإدراكي الحقيقي للبيئة ، والمثمر لنظرة أخلاقية ربّانية متميّزة ، بناها القرآن الكريم والسّنّة النّبوية كأبعاد للمسؤولية البيئية ، التي من خلالها يمكن جعلها وسيلة وأداة يحارب بها الإفساد في الأرض ، واتخاذ سبيل الصلاح فيها .

خاتمة

إن حماية البيئة لا يمكن أن ينهض بها الأفراد أو الجماعات ما لم يستشعر كل واحد منهم مسؤولية نحو البيئة ، مثل صاحب المزرعة ، فالمسؤولية هذه تدفعه إلى العمل والتغيير والتعمير ، كما تدفعه إلى السعي للإصلاح ومحاربة كل أوجه الفساد؛ والمسلم على وجه الخصوص يكون أحرى الناس بإدراك هذه المسؤولية أمام الله تعالى عمّا أقامه فيه واستخلفه .

إذ نجد في الشريعة الإسلامية التأكيد والدعم لمثل هذه المسؤولية ، مبيّنة لأبعادها ، سواء اتخذت صورة جماعية أم فردية ، عامة أم خاصة . واعتبار أن حماية البيئة صورة من صور التكليف بعمران الأرض المهمة الوجودية للإنسان ، ضمن منظومة أخلاقية لا يمكن أن توجد إلا في شريعة أساسها الوحي من السماء ، وعلى صاحب الرّسالة أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

---

(1) بديع الزمان النورسي : المرجع السابق ، ص 397 .

(2) جعفر الشيخ إدريس : الفيزياء ووجود الخالق(المنتدى الإسلامي : بيروت ، ط : 2 ، 2001)؛ نقلا عن : نضال قسّوم : هل خلق الكون من أجل الإنسان؟ موقع العلم والدين في الإسلام www . Sience . islam . net/sommaire . php3 .

قائمة المراجع :

القرآن الكريم
1. ابن حجر العسقلاني : فتح الباري (دار الحديث : القاهرة ، ط : 01 ، 1419 ـ 1998)
2. شرف الدين النووي : شرح صحيح مسلم ، حققه وخرّجه وفهرسه : عصام الّبابطيّ ، حازم محمد ، وعماد عامر(دار الحديث : القاهرة ، ط : 03 ، 1419 ـ 1998) .
3. أبو بكر بن العربي : عارضة الأحوذي بشرح جامع الترمذي(دار الفكر : بيروت ، د ط ، 1425 ـ 2005) .
4. عبد النور بزا : مصالح الإنسان (المعهد العالمي للفكر الإسلامي : فرجينيا وم أ ، ط : 1 ، 1429 ـ 2008) .
5. محمد بن أحمد ميّارة المالكي : الدرّ الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين(دار الفكر : بيروت ، د ط ، 1429 ـ 2008) .
6. بلقاسم حديد : موارد التكليف ومصادره فيما يقتضيه الشرع وما لا يقتضيه (دار الكلم الطيّب : دمشق ، ط : 01 ، 1430 ـ 2009) .
7. أبو إسحاق الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، تحقيق : محمد الإسكندراني وعدنان درويش(دار الكتاب العربي : بيروت ، د ط ، 1429 ـ 2008) .
8. عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحي والعقل ، بحث في جدلية النص والعقل والواقع (المعهد العالمي للفكر الإسلامي : فيرجينيا وم أ ، ط : 03 ، 1425 ـ 2005) .
9. // // : مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة (دار الغرب الإسلامي : بيروت ، ط : 01 ، 2006) .
10. // // : الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية؛ فقه التحضّر الإسلامي (دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط : 01 ، 1999) .
11. // // : قضايا البيئة من منظور إسلامي(طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية : قطر ، ط : 01 ، 1420 ـ 1999) .
12. فتحي الدريني : خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم (مؤسسة الرسالة : بيروت ، ط : 01 ، 1982) .
13. صفاء موزة : حماية البيئة الطبيعية في الشريعة الإسلامية دراسة فقهية مقارنة(دار النوادر : سورية ، لبنان ، الكويت ، ط : 01 ، 1431 ـ 2010) .
14. سيد قطب : في ضلال القرآن ، دار الشروق ، مصر ،
15. القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، تقديم : هاني الحاج ، تحقيق وتخريج : عماد البارودي ، وخيري سعيد(المكتبة التوفيقية : مصر ، د ط ، د ت) .
16. الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير(الدار التونسية للنشر : تونس ، والمؤسسة الوطنية للكتاب : الجزائر ، د ط ، 1984) .
17. أبو بكر الجصاص : أحكام القرآن الكريم ، تحقيق : محمد الصادق قمحاوي (دار إحياء التراث العربي : بيروت ، د ط ، 1405 ـ 1985) .
18. ابن كثير : تفسير القرآن الكريم(دار الفكر : بيروت ، د ط ، 1401 ـ 1980) .
19. العز بن بد السلام : قواعد الأحكام في إصلاح الأنام ، تحقيق : نزيه كمال حماد ، عثمان جمعة ضميرية(دار القلم : دمشق ، ط : 04 ، 1431 ـ 2010) .
20. بديع الزمان النورسي : الكلمات ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي(دار النيل : القاهرة ، ط : 01 ، 1428 ـ 2007) .
21. عبد الباقي عبد الكبير : إحياء الفروض الكفائية سبيل تنمية المجتمع ضمن سلسلة كتاب الأمة التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، بدولة قطر ، السنة : 25 ، العدد : 105 ، المحرم 1426 .
22. رشيد الحمد محمد صباريني : البيئة ومشكلاتها ، ؛ مجلة عالم الكتاب ، العدد : 22 ، أكتوب1979 .
23. محمد يحيى بن محمد المختار بن الطالب عبد الله : شرح مرتقى الوصول إلى علم الأصول المسمى« بلوغ السول وحصول المأمول« على مرتقى الوصول إلى معرفة علم الأصول ، نسقه وراجعه : خلدون الجزائري على طبعتين : (المطبعة المولوية : فاس 1327هـ)و(مكتبة الولاتي : نواكشوط ، ط : 3 ، 2006 ، تحقيق : أبو محمد بن محمد الحسن) ، النسخة المرفوعة من موقع المكتبة الشاملة : www . shamela . ws .
24. علي الخفيف : الضمان في الفقه الإسلامي(دار الفكر العربي : القاهرة ، د ط ، 1997) .
25. محمود جلال حمزة : العمل غير المشروع باعتباره مصدرا لالتزام ، القواعد العامة والخاصة ، دراسة مقارنة بين القانون المدني السوري والقانون المدني الجزائري القانون والمدني الفرنسي ، قدّم له الدكتور : محمد هشام القاسم

(ديوان المطبوعات الجامعية : الجزائر ، د ط ، 1405 ـ 1985) .
26. أبو سليمان حمد بن محمد الخطّابي البستي : معالم السُّنن شرح سنن أبي داود ، خرجه وراجعه : محمد محمد تامر(مطبعة المدني : مصر ، ط : 01 ، 1428 ـ 2007) .
27. قطب الريسوني : المحافظة على البيئة من منظور إنساني(دار ابن حزم : بيروت ، ط : 01 ، 1429 ـ 2008) .
28. عبد الله قاسم الشولي : التوجيه التشريعي الإسلامي في نظافة البيئة وصحتها ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامي ، العدد : 44 ، ذو القعدة 1429 ـ 2009 .
29. عبد السلام العبادي : البيئة من منظور إسلامي المؤتمر العام الخمس عشر لأكاديمية آل البت الملكية : البيئة في الإسلام المنعقد في تاريخ : 18 ـ 20 شوال 1431 الموافق ل : 27 ـ 29 سبتمبر 2010 مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي ، عمّان ـ المملكة الأردنيّة الهاشميّة
30. يراجع كمال رزيق : دور الدولة في حماية البيئة مجلة الباحث : العدد : 05 ، سنة2007 .
31. شوقي أحمد دنيا : الإسلام وحماية البيئة ، بحث مقدم إلى المجمع الفقه الإسلامي ، في الدورة التاسعة عشرة المنعقد بإمارة الشارقة دولة الإمارات العربية المتحدة . في الفترة1 ـ 5 جمادى الأولى 1430هـ ، الموافق ل : 26 ـ 30 أبريل 2009 ، www . fiqhacademy . org . sa
32. محمد الحاج الناصر : الإسلام وانتزاع الملك للمصلحة العامة(وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية : المملكة المغربية ، د ط ، 1411 ـ 1991) .
33. محمد عدنان سالم ومحمد وهبي سليمان : معجم كلمات القرآن الكريم ، ضمن الموسوعة القرآنية الميسّرة(دار الفكر : دمشق ، دار الفكر المعاصر : بيروت ، ط : 05 ، 1427 ـ 2006) .
34. عدنان على رضا النحوي : المسؤولية الفردية في الإسلام(دار النحوي : الرياض ، ط : 01 ، 1419 ـ 1999) .
35. ابن منظور : لسان العرب(دار صادر : بيروت ، د ط ، 1412 ـ 1992) .
36. محمد شمس الحق العظيم آبادي : عون المعبود ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، ط : 2 ، 1415 ـ 1995) .
37. محمد الشربيني الخطيب : الإقناع (دار الفكر : بيروت ، د ط ، 1415 ـ 1995)
38. // // // : مغني المحتاج(دار الفكر : بيروت ، د ط ، دت) .
39. أحمد بن محمد القسطلاني : المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية ، تحقيق : صالح أحمد الشّامي (المكتب الإسلامي : بيروت ، ط : 02 ، 1425 ـ 2004) .
40. محمد فؤاد عبد الباقي : اللؤلؤ والمرجان (دار الفكر : بيروت ، ط : 01 ، 1422 ـ 2002)
41. يوسف القرضاوي : رعاية البيئة في الشريعة الإسلامية(دار الشروق : مصر ، ط : 02 ، 1427 ـ 2006) .
42. جمال الدين ضفير الإدريسي : نصوص قرآنية في شؤون بيئية (المكتبة العصرية : بيروت ، ط : 1 ، 1430 ـ 2009) .
43. مقال : الإنسان أم العودة إلى الطبيعة ؟ ضمن : البيئة : من مركزية الإنسان والطبيعة . . إلى الاستخلاف ، موضوع الملف في موقع إسلام أون لاين : صفحة مفاهيم ومصطلحات ،
www.islamonline/net/arabic/mafaheem/2001/08/article